

دلائل الإعجاز

فصل في تحليل شاهد مُتَميز للحذف عند البحري .

قد بان الآن واتَّضح لمن نظَرَ نظر المتنبِّتِ الحَصفِ الرابعِ في اقتداحِ زنادِ العقل والازديادِ من الفضلِ ومَن شأنُهُ التَّسَوُّقُ إلى أن يعرفَ الأشياءَ على حَقائِقِها ويتغلغلَ إلى دقائقِها ويَرى بنفسِهِ عن مرتبةِ المقلِّدِ الذي يَجري معَ الظاهرِ . ولا يَعدو الذي يَقَعُ في أولِ خاطرِ أنَّ الذي قُلتُ في شأنِ الحذفِ وفي تفخيمِ أمرِهِ والتَّسْوِيَةِ بِذِكْرِهِ وأن مأخذَهُ مأخذُ السَّحرِ ويَهَرُّ الفِكرُ كالذي قُلتُ : وهذا فَنٌّ آخِرُ من معانيهِ عَجيبٌ وأنا ذاكرُهُ لك : قال البحري في قصيدته التي أولها - الطويل - :

(أَعْنِ سَفَهَ يَوْمَ الْأَبْيَرِ قُومٍ أَمْ حُلُمٍ ...) .

وهو يذكر حمامة الممدوحِ عليه وصيانتَهُ له ودفعه نوائبِ الزمانِ عنه :

(وَكَمْ ذُودَتَ عِنْدِي مِنْ تَحَامُلٍ حَدِثٍ ... وَسَوْرَةٍ أَيَّامٍ حَزَزْنَ إِلَى الْعَظَمِ) .

الأصلُ لا محالة : حَزَزْنَ اللحمَ إلى العظمِ إلَّا أنَّ في مجيئه به محذوفاً وإسقاطه له مِنْ النَّسْطِ وتركه في الضَّميرِ مزيةً عجيبةً وفائدةً جليلةً . وذاك أن من حَذَقِ الشاعرِ أن يوقعَ المعنى في نفس السَّامعِ إيقاعاً يمنعُهُ به من أن يَتَوَهَّسَ في بدءِ الأمرِ شيئاً غيرَ المُرادِ ثم يندُصرفَ إلى المرادِ . ومعلومٌ أنه لو أظهرَ المفعولَ فقال وسورةُ أَيَّامٍ حَزَزْنَ اللحمَ إلى العظمِ